واستثناء (إلا في قرى) على الوجه الأول في (جميعا) استثناء حقيقي من عموم الأحوال أي لا يقاتلونكم كلهم في حال من الأحوال إلا في حال الكون في قرى محصنة الخ . وهو على الوجه الثاني في (جميعا) استثناء منقطع لأن القتال في القرى ووراء الجدر ليس من أحوال قتال الجيوش المتساندين .

وعلى كلا الاحتمالين فالكرم يفيد أنهم لا يقاتلون إلا متفرقين كل فريق في قريتهم وإلا خائفين متترسين .

والمعنى : لا يهاجمونكم وإن هاجمتموهم لا يبرزون إليكم ولكنهم يدافعونكم في قرى محصنة أو يقاتلونكم من وراء جدر أي في الحصون والمعاقل ومن وراء الأسوار وهذا كناية عن مصيرهم إلى الهزيمة إذ ما حورب قوم في عقر دارهم إلا ذلوا كما قال علي Bه : وهذا إطلاع لهم على تطمين للرسول A والمؤمنين ودخائل الأعداء .

و (الجدر) بضمتين في قراءة الجمهور جمع جدار . وقرأه ابن كثير وأبو عمرو (جدار) على الإفراد والمراد الجنس تساوي الجمع .

و (محصنة) ممنوعة ممن يريد أخذها بأسوار أو خنادق .

وقرى بالقصر جمع قرية ووزنه وقصره على غير قياس لأن ما كان على زنة فعلة معتل اللام مثل قرية يجمع على فعال بكسر الفاء ممدودا مثل : رطوة وركاء وشكوة وشكاء . ولم يسمع القصر إلا في كوة بفتح الكاف لغة وكوى وقرية وقرى ولذلك قال الفراء : قرى شاذ يريد خارج عن القياس .

(بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون [14])

استئناف بياني لأن الإخبار عن أهل الكتاب وأنصارهم بأنهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة المفيد أنهم لا يتفقون على جيش واحد متساندين فيه مما يثير في نفس السامع أن يسأل عن موجب ذلك مع أنهم متفقون على عداوة المسلمين . فيجاب بأن بينهم بأسا شديدا وتدابرا فهم لا يتفقون .

وافتتحت الجملة ب (بأسهم) للاهتمام بالأخبار عنه بأنه بينهم أي متسلط من بعضهم على بعض وليس بأسهم على المسلمين وفي تهكم .

ومعنى بينهم : أن مجال البأس في محيطهم فما في بأسهم من إضرار فهو منعكس إليهم وهذا التركيب نظير قوله تعالى (رحماء بينهم) .

وجملة (تحسبهم جميعا) إلى آخرها استئناف عن جملة (بأسهم بينهم شديد) . لأنه قد

يسأل السائل : كيف ذلك ونحن نراهم متفقين ؟ فأجيب بأن ظاهر حالهم حال اجتماع واتحاد وهم في بواطنهم مختلفون فآراؤهم غير متفقة لا إلفة بينهم لأن بينهم إحنا وعداوات فلا يتعاضدون .

والخطاب لغير معين لأن النبي A لا يحسب ذلك . وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم . وفي الآية تربية للمسلمين ليحذروا من التخالف والتدابر ويعلموا أن الأمة لا تكون ذات بأس على أعدائها إلا إذا كانت متفقة الضمائر يرون رأيا متماثلا في أصول مصالحهما المشتركة وإن اختلفت في خصوصياتها التي لا تنقض أصول مصالحها ولا تفرق جامعتها وأنه لا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال ولا التوافق على الأغراض إلا أن تكون الضمائر خالصة من الإحن والعداوات .

والقلوب : العقول والأفكار وإطلاق القلب على العقل كثير في اللغة .

وشتى : جمع شتيت بمعنى مفارق بوزن فعلى مثل قتيل وقتلى شبهت العقول المختلفة مقاصدها بالجماعات المتفرقين في جهات في أنها لا تتلاقى في مكان واحد والمعنى : أنهم لا يتفقون على حرب المسلمين .

مسبب ذلك أي قلوبهم تشتت ومن بينهم بأسهم أن من ذكر ما إلى إشارة (ذلك) وقوله A E على عدم عقلهم إذ انساقوا إلأى إرضاء خواطر الأحقاد والتشفي بين أفرادهم وأهملوا النظر في عواقب الأمور واتباع المصالح فأضاعوا مصالح قومهم .

ولذلك أقحم لفظ القوم في قوله بأنهم قوم لا يعقلون إيماء إلى أن ذلك من آثار ضعف عقولهم حتى صارت عقولهم كالمعدومة فالمراد : أنهم لا يعقلون المعقل الصحيح .

وأوثر هنا (لا يعقلون) . وفي الآية التي قبلها (لا يفقهون) لأن معرفة مآل التشتت في الرأي وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوهن والفت في ساعد الأمة معرفة (مشهورة) بين العقلاء قال أحد بني نبهان يخاطب قومه إذ أزمعوا على حرب بعضهم : .

وأن الحزامة أن تصرفوا ... لحي سوانا صدور الأسل